

الصّدفة وحدها (؟) جعلتني أتصفّح لسان العرب وأنتبه إلى العلاقة بين كلمة جن وكلمة جنين. إذَاك أَخَذتِ الخطوط العريضة لقراءتي للحكاية ترسم وتتضح وتتأكد. وبالفعل بين الجنني والجنين تماثل قوي. كلاهما في البداية ملفوف في ظرف، في وعاء مائي. وداخل هذا الوعاء كلاهما بين الحياة والموت (كلمة جنين تعني فيما تعنيه المقبور؛ «والجَنَن بالفتح : هو القبر لستره الميت»). كلاهما يخرج من ظلام دامس (عبارة «جَنّ اللّيل» مشهورة؛ وفي اللسان : «جَنون اللّيل أي ما ستر من ظلمته»). كلاهما غارق في ماضٍ سحيقٍ وغائبٍ عن الواقع، أي كلاهما مجنون، إذا اتفقنا على أن الجنون هو فقدُ الصّلة بالعالم الخارجي. الجنين لا يعي العالم الذي يطرح فيه، والجنني متأخّر عن زمانه بألف وثمانمائة سنة.

لنحاول الآن أن نفهم لماذا أراد العفريت قتل الصياد. لقد ملّ المكوث في القمم، فصار يكره العداوة للخلق كلّه، بدءاً بالشخص الذي سيخلصه. وإنّ ما يلفت الانتباه هو قوله للصياد : «ما أقتلك إلا لأجل ما خلّصتني». إذا كان للكلام معنى، فإن الجنني يشير بقوله هذا إلى أنه لم يكن يريد الخلاص، أي لم يكن يرغب في الخروج إلى الوجود. فكأنه أصيب بما يُسمّى صدمة الولادة.

إنّ أبياتاً شعرية عديدة، عربية وغير عربية، تصف هذه الصدمة، فتصور الحياة في بطن الأم على أنها حياة استقرار وطمأنينة وسعادة، وتصور الخروج إلى الدنيا على أنه خروج إلى الشقاء والتعاسة. بهذا المعنى يفسّر ابن الرومي بكاء الطفل عند ولادته :

لِمَا تُؤذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بَكَاءَ الطُّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ
وإلا فَمَا يُبْكِيهِ مِنْهَا وَإِنَّهَا لأَرْحَبُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَرْغَدُ⁽¹²⁾